(٤٣)

خطأ

يظهر(١)أن بعد الدار يؤثر فى تصور الناس الأشياء وحكمهم عليها وإن كانوا من أعلم الناس بها ، وأفهمهم لدخائلها ، كما أن بعد أدوات الحس عن المحسوسات يضعف أثر الحواس بالأشياء .

فصديقنا محمود عزمى من أعلم الناس بمصر ، وبما يحدث فيها من الحوادث ومن يضطرب فيها من الناس . وهو كذلك عالم حق العلم بطبيعة الحياة والأحياء فى هذا البلد ، ولكن عهده بوطنه بعيد ، وداره عن وطنه نازحة ، فهو يتصور الأشياء من بعد ، وينتظر من الناس أكثر مما كان ينتظر منهم لو أنه حديث العهد بهم ، مقيم فيهم ، يراهم كل يوم ويتحدث إليهم كل يوم ، ويرى وقع الحوادث فى نفوسهم ، ويسمع تعبير ألسنتهم عن وقع هذه الحوادث ، واضطراب أصواتهم بما تجد نفوسهم من لذة وألم ، ومن نعيم وبؤس ، ومن سرور وحزن . ويحس فى أثناء هذا كله ما تخفيه الضمائر الخفية من رضى وسخط ، ومن رجاء ويأس ، إذن لانتظر من الناس غير ما ينتظر منهم الآن ، ولطلب إلى طبيعة الأشياء غير ما يطلب إليها الآن ،

---

(١) ١٨ — ٣ — ١٩٣٣ ، ٢٣٣٧

فقد ابتسمت كارها صباح اليوم ابتسامة كلها مرارة وحزن عميق حين رأيته ينتظر أن تكون الصحف الموالية للوزارة أشد من صحف المعارضة إلحاحا على الحكومة فى تغيير نظام السجون بالقياس إلى جرائم الرأى . والإسراع إلى تحسين حال صديقنا توفيق دياب فى سجنه .

ابتسمت ابتسامة كلها مرارة وحزن عميق . لأنى عرفت أن عزمى بعيد عن مصر ، لا يرى الناس فيها ، ولا يرى تأثر الناس بما يحدث من الحوادث ولا فهمهم لهذه الحوادث ولا حكمهم عليها . وهو مع ذلك شديد التأثر كما كان دائما بحبه للمثل الأعلى فى التعاون والتضامن والطموح إلى الخير ، واحتمال التبعات فى سبيلها . فهو إذن ينتظر من الصحف الموالية للوزارة كما ينتظر الناس من الصحف الموالية للوزارات فى أوربا أن تذكر قبل كل شىء أنها صحف وأن الصحف إنما أنشئت لتدعو إلى الخير ، وتلح فيه فتسرع إلى الإلحاح على الحكومة فى أن تقدر كرامة الرأى ، وتعامل توفيق دياب كما يعامل أمثاله فى البلاد التى تقدر الحرية وكرامة العقل . وهو إذن ينتظر من الصحف الموالية للوزارة ألا تتردد فى الاستفادة من موالاتها للوزارة لتستغل قربها من الحكومة فتوجهه فى سبيل الخير ، وتتخذه وسيلة إلى تحقيق العدل والبر والإنصاف الذى لا يختلف الناس فيه ، سواء كانوا من أنصار الحكومة أو من خصومها ومعارضيها .

هو ينتظر هذا كله ، ومن حقه أن ينتظر هذا كله ، لأن طبيعة الأشياء إذا استقامت وجرت على منهج معتدل من حب الحق والخير تقضى على الصحف الموالية للحكومة أن تقف من توفيق دياب ومن نظام السجون هذا الموقف الذى ينتظره منها صديقى عزمى ، ولكن طبيعة الأشياء قد التوت فى مصر ، والمنهج الذى تجرى عليه قد فسد واعوج . وصحف الوزارة لا تستطيع أن تكون أسرع من صحف المعارضة إلى المطالبة بتغيير نظام السجون والإصلاح من أمر توفيق دياب ، لأنها قبل أن تفكر فى الخير لنفسه مضطرة إلى أن تفكر فيما يمكن ومالا يمكن ، فيما يراد ومالا يراد . ثم فيما يقال ومالا يقال

هى مضطرة إلى هذا ، فليس من اليسير عليها أن تصارح الحكومة بالحق ، أو تلح على الحكومة فيما لا تحب . ولو قد فعلت لما لقيت من الحكومة خيرا ، ولأعرضت عنها وجوه تحب أن تقبل عليها ؛ ولا زور عنها أشخاص تحب أن يلقوها بالبشاشة والإيناس .

هى إذن مضطرة أن ترضى الحكومة قبل أن ترضى نفسها ، وقبل أن ترضى فكرة الصحافة . أتلام فى ذلك أم تعذر عليه ؟ أما أصحاب الأخلاق الذين لا يريدون إلا الفضيلة والفضيلة وحدها فيلومون لأن الحق والخير يجب أن يتقدم على كل شىء حتى على رضى الحكومة عن صحف المعارضة . وأما العمليون والذين يريدون أن يلائموا بين المنفعة والخلق بهذه الأوضاع الاجتماعية التى نسميها مجاملة ، فهم يعذرون ويكتفون من صحف الحكومة بأن تختار لنفسها مكانا وسطا فتجامل صحف المعارضة ، وترفق بالحكومة فلا تسرف عليها بالإلحاح والإلحاف .

ولعلك لم تنس أن وزيرا قائما اليوم كان(١) صحفيا أمس ، فكره أن يشارك الصحفيين فيما كانوا يطالبون به ، ولم يتحرج من إعلان ذلك والجهر به ، لأنه يؤثر أهواء الأحزاب على الخير من حيث هو خير ، والحق من حيث هو حق . وعلى هذا العدل الذى يرتفع فوق خصومة الأحزاب كما يرتفع فوق المنافع كلها .

لو كان عزمى حاضرا أمر القوم وهم يجتمعون ويتجادلون لعرف أنه يسرف حين يطلب إلى الناس أكثر مما يستطيعون . نعم إن المنفعة المحققة لصحف الحكومة تقضى عليها بأن تبذل ما تملك من قوة وجهد لإصلاح نظام السجن والترفيه عن توفيق دياب لأنها موالية اليوم للحكومة ، ظافرة بعطفها ، آمنة بطشها . ولكن من قصر النظر أن تؤمن لهذه الوزارة بالخلود ، فستزول

---

(١) المراد محمد علام باشا ، وكان صاحب امتياز صحيفة الشعب وتنازل عنه بعد أن عين وزيراً للزراعة .

هذه الوزارة من غير شك ، وستؤول أمور الحكم إلى المعارضة . وستصبح صحف الوزارة القائمة صحفا معارضة ، ومن يدرى لعلها تحيد عن القانون، ولعلها تضطر إلى السجن .

أفليس من الكياسة أن تهيء لنفسها منذ الآن سجنا رفيقا لا تشقى به إذا اضطرت إليه ؟ ولكنك تستطيع أن تقنع صحف الحكومة بكل شيء إلا بأن وزارتها ستزول ، وأنها قد تتعرض لما تتعرض له الآن الصحف المخاصمة للحكومة .

وليس يقف خطأ عزمى فى تصور الأشياء والحكم عليها عند هذا الحد، فهو يذكر أن إدارة السجون فى إنجلترا تصدر صحيفة للمجرمين ، وكأنه يتمنى أن تقرب حياة المجرمين السياسيين فى سجون مصر من حياتهم فى سجون البلاد الأخرى. ولو كان عزمى فى مصر ، ورأى الوزراء وسيرتهم، واستمع لأحاديثهم ولما يتحدث الناس به عنهم ، ورأى شجاعة النواب واستشادهم على الصحف المعارضة حين تقع بعض الجرائم ، ثم فتورهم وتخاذلهم حين يطلب إليهم إصلاح نظام السجون لعرف أن الشاعر القديم لم يخطىء حين قال :

ومكلف الأيام ضد طباعها متطلب فى الماء جذوة(١)نار

كلا أيها الصديق ، لم تسرع صحف الوزارة ، ولن تسرع إلى ما أردت أن تسرع إليه من الخير ، ولم تظهر الحكومة والبرلمان ما تمنيت أن يظهرا من الرغبة فى نظام إصلاح السجون ، والترفيه عن المسجونين فى سبيل الرأى وأكبر الظن أن الأمر سيبقى كما هو الآن حتى يديل الله من أحزاب لأحزاب وحتى يولى الله أمور هذه الأمة قوما لا يتخذون الحكم وسيلة إلى التسلط

---

(١) هذا البيت من قصيدة لابن نباتة المصرى يرثى ابنه ، ومطلعها :

حكم المنية فى البرية جارى ما هذه الدنيا بدار قرار

والقهر ، ولا يرون السجن أسلوبا من أساليب الانتقام ، ولا يفرقون فى المعاملة بين الأولياء والخصوم ، ولا يعلنون فى غير تورع ولا احتياط أن مصر قدبلغت من الرقى والحضارة مابلغته غيرها من الدول الراقية المتحضرة ثم يرون فى الوقت نفسه فى معاملة المصريين ، والمصريين وحدهم أساليب هى أبعد ما تكون أساليب الحكم عن الرقى والحضارة .

نعم وأكبر الظن أن توفيق دياب سيلقى ما يلقى فى سجنه صابراً كما عرفته ، جلدا كما عرفته ، باسما للخطب كما عرفته ، حتى يغير الله حالا بحال ، وحتى يجعل الله قوما مكان قوم . فإذا لم يكن لك بد من أن تأمل وترجو ، وتنتظر الخير فاجعل أملك ورجاءك فى الله وفى الأمة فاليهما وحدهما يكون الأمل والرجاء ، ومنهما وحدهما ينتظر الخير .